

تفسير السعدي

@ 308 @ (بالكتاب) ^ أي : يتمسكون به علما وعملا ، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم . ويعملون بما فيها من الأوامر ، التي هي قرة العيون ، وسرور القلوب ، وأفراح الأرواح ، وصلاح الدنيا والآخرة . ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات ، إقامة الصلاة ، طاهرا وباطنا ، ولهذا خصها بالذكر لفضلها ، وشرفها ، وكونها ميزان الإيمان ، وإقامتها ، داعية لإقامة غيرها من العبادات . ولما كان عملهم كله إصلاحا ، قال تعالى : ^ (إنا لا نضيع أجر المصلحين) ^ في أقوالهم وأعمالهم ، ونياتهم ، مصلحين ، لأنفسهم ، ولغيرهم . وهذه الآية ، وما أشبهها ، دلت على أن الله بعث رسله ، عليهم الصلاة والسلام ، بالصلاح لا بالفساد ، وبالمنافع لا بالمضار ، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين ، فكل من كان أصح ، كان أقرب إلى اتباعهم . ثم قال تعالى : ^ (وإذا نتقنا الجبل فوقهم) ^ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة . فألزمهم الله العمل ونتق فوق رؤسهم الجبل ، فصار فوقهم ^ (كأنه ظلة وطنوا أنه واقع بهم) ! 2 2 ! (خذوا ما آتيناكم بقوة) ^ أي : بجد واجتهاد . ^ (واذكروا ما فيه) ^ دراسة ومباحثة ، واتصافا بالعمل ^ (لعلكم تتقون) ^ إذا فعلتم ذلك . ^ (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن ه ذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون) ^ يقول تعالى : ^ (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) ^ أي : أخرج من أصلابهم ، ذريتهم ، وجعلهم يتناسلون ، ويتوالدون ، قرنا بعد قرن . ^ (و) ^ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ^ (أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) ^ أي : قرره ، بإثبات ربوبيته ، بما أودعه في فطرتهم ، من الإقرار ، بأنه ربهم وخالقهم ، ومليكنهم . قالوا : ^ (بلى) ^ قد أقررنا بذلك ، فإن الله تعالى ، فطر عباده على الدين الحنيف القيم . فكل أحد ، فهو مفطور على ذلك ، ولكن الفطرة قد تغير ، وتبدل ، بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة ، ولهذا ^ (قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ^ . أي : إنما امتحناكم ، حتى أقررتم ، بما تقررون عندكم ، من أن الله تعالى ، ربكم ، خشية أن تنكروا يوم القيامة ، فلا تقرروا بشيء من ذلك ، وتزعمون أن حجة الله ، ما قامت عليكم ، ولا عندكم بها علم ، بل أنتم غافلون عنها لاهون . فاليوم ، قد انقطعت حجتكم ، وثبتت الحجة البالغة ، عليكم ، أو تحتجون أيضا بحجة أخرى ، فتقولون : ^ (إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) ^ فخذونا حذوهم ،

وتبعناهم في باطلهم . ^ (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) ^ ، فقد أودع ا في فطركم ، ما يدلکم على أن ما مع آبائکم ، باطل ، وأن الحق ما جاءت به الرسل ، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آبائکم ، ويعلو عليه . نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ، ومذاهبهم الفاسدة ، ما يظنه هو الحق ، وما ذاك إلا لإعراضه ، عن حجج ا وبيناته ، وآياته الأفقية ، والنفسية ، فإعراضه ذلك ، وإقباله على ما قاله المبطلون ، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق ، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات . وقد قيل : إن هذا يوم أخذ ا الميثاق على ذرية آدم ، حين استخرجهم من طهره ، وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا بذلك ، فاحتج عليهم بما أمرهم به في ذلك الوقت ، على ظلمهم ، في كفرهم ، وعنادهم في الدنيا والآخرة ، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا ، ولا له مناسبة ، ولا تقتضيه حكمة ا تعالى ، والواقع شاهد بذلك . فإن هذا العهد والميثاق ، الذي ذكروا ، أنه حين أخرج ا ذرية آدم من طهره ، حين كانوا في عالم الذر ، لا يذكره أحد ، ولا يخطر ببال آدمي . فكيف يحتج ا عليهم بأمر ، ليس عندهم به خبر ، ولا له عين ولا أثر ؟ ولهذا لما كان هذا أمرا واضحا جليا ، قال تعالى : ^ (وكذلك نفصل الآيات) ^ أي : نبينها ونوضحها ، ^ (ولعلمهم يرجعون) ^ إلى ما أودع ا في فطركم ، وإلى ما عاهدوا ا عليه ، فيرتدعوا عن القبائح . ^ () واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولن يخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * سآء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهد ا فهو المهتدي ومن يضل فأولئك هم الخاسرون) ^ يقول تعالى لنبيه صلى ا عليه وسلم : ^ (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) ^